

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٠ - سُورَةُ النَّصْرِ

مدنية ، وآياتها ثلاث .

وهي آخر سورة نزلت في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما . وروى البيهقي عن ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال ، لما نزلت هذه السورة : إنه قد نعت إلى نفسي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)
 [٢] (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا)
 [٣] (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا)

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ » أى لدينه الحق على الباطل « وَالْفَتْحُ » أى فتح مكة الذى فتح الله به بينه وبين قومه صلوات الله عليه، فجعل له الغلبة عليهم وضمف أمرهم فى التمسك بعقائدهم الباطلة « وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا » أى ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون فى دين الله ، وهو دينك الذى جئتهم به لزوال ذلك الفناء الذى كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحاداً ، كما كان فى بدء الأمر أيام الشدة . إذا حصل ذلك كله وهو لا يرب حاصل « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » أى فتره ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله . وعن أن يخلف وعده فى تأييده . وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذى لا يعليه غالب، والحكيم الذى إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما فى قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المرائين « وَاسْتَغْفِرْهُ » أى اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعده الله، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التى تحدثها الشدائد، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه ﷺ قد تبلغ ذلك الكمال .

فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم « إِنَّهُ وَكَانَ تَوَّابًا » أي إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربُّ يربي النفوس بالحنن . فإذا وجدت الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشددهما بحسن الوعد . ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال . وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها . وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكان الله يقول : إذا حصل الفتح ، وتحقق النصر ، وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره ، والزرع إليه عما كان من خواطر النفس . فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك السكينة في ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبي ﷺ أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روى عنه : إنه قد نعت إليه نفسه . هذا ملخص ما أورده الإمام في تفسيره .

تنبيهات :

الأول - قال ابن كثير : المراد بالفتح ههنا فتح مكة قولاً واحداً . فإن أحياء العرب كانت تلوّم بإسلامها فتح مكة . يقولون إن ظهر على قومه ، فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً . ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام والله الحمد والمنة . وقد روى البخاري في صحيحه (١) عن عمرو ابن سلمة : كنا بماء ممرّ الناس . وكان يمرُّ بنا الركبان فنسألهم : مال للناس ؟ مال للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله أوحى إليه (أو أوحى الله بكذا) فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنا نغوي في صدري . وكانت العرب تلوّم بإسلامهم الفتح ، فيقولون : أتركوه وقومه . فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم . . الحديث .

(١) أخرجه في : ٦٤ - كتاب المنازى ، ٥٣ - باب وقال الليث ، حديث رقم ١٩٢٥

الثاني - قال الرازي : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فلنناس في وقت نزول هذه

السورة قولان :

أحدها - أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر . وروى أنه عاش

بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً . ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما - أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله ﷺ أن ينصره على

أهل مكة ، وأن يفتحها عليه . ونظيره ^(١) : (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَرَآدُكَ إِلَىٰ

مَعَادٍ) . وقوله : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) يقتضى الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع (إذا

جاء) و (إذا وقع) وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات . من حيث أنه

خبر وجد مخبره بعد حين مطابق له . والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) : ولأبي يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه

السورة في أوسط أيام التشريق ، في حجة الوداع . فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم

أنه الوداع .

ثم قال : وسئلت عن قول الكشاف : إن سورة النصر نزلت في حجة الوداع أيام

التشريق ، فكيف صدرت بـ (إذا) الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف ما نقله . وعلى

تقدير صحته ، فالشرط لم يتكامل بالفتح . لأن مجيء الناس أفواجا لم يكن كحل ، فبقية

الشرط مستقبل .

وقد أوود الطيبي السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدها - أن (إذا) قد ترد بمعنى (إذ) كما في قوله تعالى ^(٢) : (وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً ..) الآية .

ثانيهما - أن كلام الله قديم . وفي كل من الجوابين نظرا لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث - قال الشهاب : المراد بـ (الناس) العرب . فـ (أل) عهدية . أو المراد الاستغراق

(١) [٢٨ / القصص / ٨٥] . (٢) [٦٢ / الجمعة / ١١] .

العرق . والمراد عبدة الأصنام منهم . لأن نصارى تغلب لم يسلموا في حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

الرابع - روى البخارى^(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماصلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إلا يقول فيها : سبحانك ربنا وبمحمدك ، اللهم اغفرلى .

وفيه عنها أيضاً^(٢) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبمحمدك ، اللهم اغفرلى ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى (يتأول القرآن) يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد والاستغفار ، فى أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيم فى (الهدى) كأنه أخذه من قوله تعالى : (وَأَسْتَغْفِرُهُ) لأنه كان يجعل الاستغفار فى خواتم الأمور . فيقول إذا سلم من الصلاة : أستغفر الله ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : غفرانك . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المفاك^(٣) : (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ . . .) الآية .

(١) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ سورة النصر ، ١ - حدثنا الحسن بن

الربيع ، حديث رقم ٤٨١ .

(٢) أخرجه فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١٠ - سورة النصر ، ٢ - حدثنا عثمان

ابن أبى شيبة ، حديث رقم ٤٨١ .

(٣) [٢ / البقرة / ١٩٩] .